من الدعاء إلى التحقق: المنطق الروائي لـ "إمكان المعيّة مع الإمام" في الدارين

إمكان المعية مع الإمام في ضوء النصوص والروايات

تُعدّ "المعيّة مع أولياء الله" من أكثر المفاهيم جوهريةً في مسيرة الإنسان نحو الكمال، وفق علم الإنسان في الرؤية الإسلامية. فهي ليست مجرد طموحٍ معنوي أو تجربة عاطفية عابرة، بل هي حقيقةٌ أرست قواعدها نصوص زيارة عاشوراء، ونهج البلاغة، وأحاديث أهل البيت (عليهم السلام)، بوصفها أرقى مراتب القرب الإلهي. والملمح الأهم هنا هو أن زيارة عاشوراء لا تطلب هذه الرفقة في الآخرة فحسب، بل تنشدها في الدنيا والآخرة معاً؛ وهذا الشمول ينقل "المعية مع الإمام" من مجرد أمنية عرفانية إلى قضية قابلة للبحث والتحليل في منطق الكتاب والسنة. إننا نسعى هنا لتبيان كيف استُخلصت هذه الإمكانية من بطون الأدعية، وما هي الشروط اللازمة لتحققها.

المعية في زيارة عاشوراء

تُعدّ فقرة «أَنْ يَجْعَلَنِي مَعَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» في زيارة عاشوراء — وهي حديثٌ قدسيّ — المنطلق الأساس لترسيخ مفهوم "إمكانية المعية مع الإمام. حيث يطلب الله من الزائر أن يعبّر عن أمنيته عند الحديث مع الإمام بهذه الصيغة. ويكشف هذا الطلب في آنٍ واحد عن حقيقتين أساسيتين: الأولى، أنّ طلب المعية للإنسان أمرٌ ممكن ومشروع؛ والثانية، أنّ هذه المعية لا تقتصر على عالم الآخرة، بل إنّ تحقّقها في الدنيا أيضًا أمرٌ وارد ومتاح. هاتان النقطتان تشكّلان الأساس الجوهري للنقاش حول إمكان المعية مع الإمام.

ثم ترتقي الزيارة لتطلب ما هو أبعد من مجرد المرافقة، حين يلهج الزائر: «وَأَسْأَلُهُ أَنْ يُبَلِّغَنِي الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ لَكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ». هنا يرتفع سقف المطلب ليلامس تخوم "المقام المحمود" الخاص بالأئمة. وفي منطق العقل والوحي، لا يُعقل أن يدعو الإنسان بما هو مستحيل؛ فلو لم يكن الوصول إلى ظلال هذا المقام ممكناً، لما جاء ذكره في دعاءٍ معصوم. إن هذا يؤكد بلا ريب أن المساحات الوجودية للإنسان أرحب بكثير مما يتصوره العقل المحدود، وأن سقف الترقي البشري لا سقف له.

الأساس الروائي لإمكان المعية مع الإمام: العلاقة بين الدعاء والإجابة

لفهم حقيقة "المعيّة مع الإمام" وجدواها، يجدر بنا التأمل في كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام) حيث يقول: «قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ.»[1] تُرسِّخ هذه العبارة أصلًا أساسياً بالغ الأهمية، مفاده أنّ كلّ موضعٍ أذن الله فيه بالدعاء، فقد قرّر فيه إمكان تحقّقه. وعلى هذا الأساس، فإنّ المعية ليست أمرًا ممكنًا فحسب، بل إنّ طلب الإنسان لها يُعدّ بحدّ ذاته شاهدًا على وجود قابلية واقعية كامنة فينا لبلوغها. ولو كانت المعية أو الوصول إلى المقام المحمود خارج دائرة الإمكان، لما تكوّن ـ أصلًا ـ في وجدان الإنسان طلبٌ أو شوقٌ أو تطلّعٌ نحوها؛ إذ إنّ الرغبة الصادقة لا تتعلّق بما هو محال.

وفي هذا السياق، يبرز حديث أمير المؤمنين (عليه السلام) حول غيبة القائم: «لِلْقَائِمِ مِنَّا غَيْبَةٌ أَمَدُهَا طَوِيلٌ... أَلَا فَمَنْ ثَبَتَ مِنْهُمْ عَلَى دِينِهِ وَلَمْ يَقْسُ قَلْبُهُ... فَهُوَ مَعِي فِي دَرَجَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ».[2] ومن هذا النص نستشف حقائق ثلاث:

أ. عصر الغيبة ميدان اختبار: يصور لنا النص حال الناس في الغيبة كالهائمين في طلب المرعى، مما يعكس حالة التيه والاضطراب والابتلاءات القاسية التي ستواجه المؤمنين في بحثهم عن مسار النجاة.

ب. الثبات وطهارة القلب هما الميزان: المعيار الحقيقي هنا ليس مجرد الادعاء أو المظاهر، بل هو "الصلابة والثبات في الدين" و"سلامة القلب" من القسوة، فهما المفتاح لصحبة الإمام.

ت. المعية تعني الاشتراك في الدرجة مع الإمام :عبارة «فَهُوَ مَعِي فِي دَرَجَتِي» تنقل المفهوم من حيز القرب المعنوي البسيط إلى مقامٍ ومرتبة وجودية، مما يجعل المعيّة حقيقة عينية تتحقق في عوالم القيامة وليست مجرد تجربة ذوقية أو عرفانية.

بين المعيّة والسنخيّة؛ مراحل الوصول إلى المعيّة

انطلاقًا من كلام الإمام عليّ (عليه السلام)، فإنَّ الإذن الإلهي بالدعاء يمثل ضمانة ضمنية للإجابة، فإذا ما اقترن قولنا في زيارة عاشوراء بالصدق، أصبحت المعيّة نتيجة منطقية للوعد الإلهي. ففي زيارة عاشوراء نطلب

---

١ نهج البلاغة، الرسالة رقم ٣١
٢ . كمال الدين و تمام النعمة (ج١، ص٤٢١)

من اللّٰه المعيّة مع الإمام في الدنيا والآخرة، والدعاء إن كان مستحيلًا ـ فإنه يكون إمّا لغوًا أو غير حكيم، وحيث إن زيارة عاشوراء حديثٌ قدسيّ، فإن إمكان الوصول إلى المعيّة مع الإمام أمرٌ قطعيّ لا ريب فيه.

وتخلص الروايات إلى أنَّ هذه المعيّة لا تتأتى من أعمال متفرقة، بل هي ثمرة "السنخيّة"؛ أي التناغم والانسجام التام مع أولياء اللّٰه في الفكر والإرادة والمنهج. فزيارة عاشوراء حين تجمع بين المعرفة، والولاية، والبراءة من الأعداء، فهي في الواقع ترسم "خارطة طريق" لتحقيق تلك السنخيّة التي تُعد الركيزة الوجودية الوحيدة لجعل المعيّة مع الإمام حقيقة ملموسة.

١. المعرفة؛ بداية السنخية

في زيارة عاشوراء تُعرَّف المعرفة على أنّها أوّل عطيّة إلهيّة؛ إذ من دونها لا يتشكّل أيّ ارتباط. فهي الأساس النظري لإمكان المعيّة مع الإمام.

٢. الولاية؛ قبول المرجعيّة الوجوديّة

الولاية ليست مجرّد محبّة، بل هي إقرارٌ بمركزيّة الإمام في المنظومة الفكريّة والعمليّة للإنسان. فالولاية تُحوِّل المعرفة إلى علاقةٍ حيّة فاعلة، وتشكل أحد أركان إمكان المعيّة مع الإمام.

٣. البراءة؛ شرط الطهارة الباطنيّة

تؤكّد زيارة عاشوراء أنّ التبرّي من الأعداء شرطٌ أساسي في مسار المعيّة. فهذا العنصر يطهّر ساحة القلب ليتحقّق الانسجام، وهو لازمٌ أساسيّ لتحقّق المعيّة مع الإمام.

٤. الاتّباع والانسجام العملي

تُهيّئ زيارة عاشوراء توجّه الحياة العمليّة في طريق المعيّة ومرافقة الإمام. فالمعيّة بلا انسجامٍ سلوكيّ لا معنى لها؛ ومن ثمّ يكون الاتّباع نصفَ عمليّة تحقّق إمكان الصحبة مع الإمام.

٥. الثبات وعدم قسوة القلب

يُعدّ الثبات آخر الشروط والمعيار النهائي للمعيّة؛ فإذا انهارت سنخيتنا الداخليّة بذريعة صعوبات الحياة، نكون قد فقدنا إمكان المعيّة مع الإمام. وعليه، فإنّ الثبات الوجودي هو نقطة التحقّق النهائي لإمكان المعيّة مع الإمام.

وبالاستناد إلى الأدعية والروايات المعتبرة، يمكننا أن نستنتج الآن أنّ المعيّة مع الإمام حقيقةٌ قطعيّة ومضمونة في منطق الدين. فزيارة عاشوراء تُعبّر عن هذه الحقيقة في قالب طلب المعيّة، بل وطلب المقام المحمود. ويبيّن نهج البلاغة العلاقة بين الإذن بالدعاء والاستجابة، فيما توضّح رواية أخرى في كتاب *"كمال الدين"*، معايير تحقّقها. هذه النصوص تُظهر مجتمعةً أنّ المعيّة ليست أمنيةً عاطفيّة، بل حقيقةٌ عمليّة قابلة للتحقّق، مرتبطة بسنخية الإنسان وثباته.

من هذا المنظور، فإنّ المعيّة مع الإمام تُعادِل تشكّل نوعٍ من التماثل الوجودي الذي يتكوّن في الدنيا ويبلغ تمام ظهوره في الآخرة. وهذه هي النقطة التي تميّز المعيّة عن مجرّد المحبّة العاطفيّة أو العمل الظاهري، وترفعها إلى مصافّ أسمى مقامات الإنسان المؤمن. وبناءً على هذا النسق الفكري، فإنّ كلّ من يسلك دروب المعرفة والولاية والبراءة والاتّباع والثبات، يكون مشمولًا بالوعد الإلهي، ويفتح في ذاته طريق التحقّق الكامل لإمكان المعيّة مع الإمام.